د.مباركية عيسى
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المقياس: قضايا نقدية
التخصص: أدب حديث ومعاصر ـ ماستر
المستوى: ثانية ماستر، السداسي 3

المحاضرة رقم 08

عنوان المحاضرة: الانزياح

تعد ظاهرة الانزياح من الظواهر المهمة في النقد الحديث، فقد اهتمت الدراسات النقدية العربية بهذه الظاهرة باعتبارها قضية أساسية في تشكيل جماليات النصوص الأدبية، وقد أثير حول هذه الظاهرة جدل كبير ملأ صداه فضاء النقد العربي والغربي على حد سواء، وانطلاقا من هذا، نجد أنفسنا أمام سؤال ملح: ما مفهوم ظاهرة الانزياح عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى والمحدثين؟ وما مفهومه مع أبرز النقاد الغربيين؟ وماهي الإشكالية التي وقع فيها هذا المصطلح؟ (إشكالية تعدد المصطلح).

الانزياح لغة: مفهوم الانزياح يتحدد لغة في معجم الوسيط على أنه: "نزح، نزحا، ونزوحا؛ بعد، يقال نزحت الدار، والبئر قل ماؤها أو نفذ".

وجاء في معجم أساس البلاغة على الجذر "ز، ي، ح" ، "أزاح الله العلل، وأزاحت علته فيما احتاج إليه، وزاحت علته وانزاحت، وهذا مما تنزاح به الشكوك من القلب"، أي تبتعد.

أما في لسان العرب فقد جاء من "نزح، نزحا، ونزوحا: بَعُد، يقال:نزحت البئر قل ماؤها أو نفد ونزح ، أنزاح، بَعُد وابتعد ونزحت الدار فهي تنزح نزوحا إذا بعدت، وقد نزح بفلان إذا بعد عن دياره غيبة بعيدة".

ومما سبق نرى أن الدلالة اللغوية لهذه المادة لا ترتبط بالذهاب والتباعد والتنحي، وفي كل هذا تغيير لحالة معينة وعدم الالتزام بها.

الانزياح اصطلاحا: تعتبر ظاهرة الانزياح من أهم الظواهر التي يتميز بها الأسلوب الأدبي، فهو يمنح لغتها الخصوصية لأن أغلب النقاد الكبار يجعلون منها ظاهرة أساسية للبحث في خصوصية الأسلوبية للنص الأدبي، إذ بتفحصنا لهذا المفهوم من مختلف الكتب رأينا أنها تدور في مقصدية واحدة وهي الخروج عن المألوف، ذ يسمح للمبدع بالتلاعب باللغة والانزياح عن المعايير والقوانين التي تحكمها والتي من خلالها تحاول ضبط الخروج عن النمط المألوف من اللغة في ذاتها، وهذا ما سنراه من خلال تحديد مفهومها أوملامحها في تراثنا النقدي العربي القديم وبعدها عند العرب المحدثين وعند الغربيين.

ملامح الانزياح في التراث النقدي العربي: تناول النقد العربي قضية الانزياح من قبل، بأسلوب يضاهي أحيانا مستوى المدارس الأسلوبية الغربية الحديثة، "وإن كان مصطلح الانزياح حديث النشأة، إلا أن الظاهرة التي يدل عليها ليست جديدة، بل تعود جذورها إلى القدم، وإن كانت حاضرة بمسميات مختلفة".

فالباحث عن ملامح الانزياح في التراث العربي يجد هذا المصطلح بمسميات أخرى(كالعدول، والالتفات والخروج والانحراف والتحريف وغيرها).

ـــ العدول: والذي يعد من أكثر المصطلحات التصاقا بظاهرة الانزياح، فقد استعمل (ابن جني) (ت392ه) العدول بمعنى (التوسع والاتساع والخروج عن الأنماط الكلامية والفنية

المتداولة والمألوفة في الكلام، إذ نجده يقول: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه".

إذ يلاحظ من هذا القول أن العدول يجوز كلما استعمل في الكلام المجازي قصد الاتساع والتوكيد والتشبيه، فالانزياح مصطلح غير مذكور في "الخصائص"، لكن يمكن أن يشار إليه بالعدول والاتساع والمجاز.

واستعمله كل من (ابن سينا) (ت.428ه) و(عبد القاهر الجرجاني) (ت.471ه) فعن هذا الأخير مثلا نجده يقول: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول: الكناية والاستعارة، والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ماكان فيه، على الجملة، مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر..."

فهو يرى في الانزياح "سوى عملية خرق وتأليف، أو عملية تأليف قائمة على الخرق، أو محكومة بشروط الخرق، بشروط خرق نظام النظم أو نظام العلاقة بين الإشارة وبشروط خرق الأشياء المنظومة أو المؤلفة نفسها"؛ أي أنه يرى الانزياح على أنه عملية عصيان يقوم بها الكاتب على القواعد اللغوية النحوية.

ـ **الالتفات:** إذ ورد هذا المصطلح عند بعض البلاغيين تحت ظاهرة "خروج الكلام عما يقتضيه الظاهر، وهو من أبرز صور العدول وأشهرها، وذلك لأنه يخرج بالبنى التركيبية التي يتطلبها السياق إلى بنى تركيبية أخرى".

ويرى الزمخشري أن بلاغة الالتفات ماثلة بما فيه من مبالغة وبما فيه من تحريك للفت انتباه السامع، يقول: "فإن قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت : المبالغة، ثم إن الكلام إذ نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"، وبالتالي فإن الزمخشري قد ذكر وتنبه إلى غاية معنوية أخرى للالتفات وهي المبالغة ولفت انتباه السامع.

ـ **التغيير:** وهو فعل يؤدي بالكلام العادي المألوف إلى أن يخرج غير مخرج العادة، ويرى "ابن رشد" أن القول الشعري هو القول المتغير، والمتغير عدول عن الحقيقة إلى المجاز، ويشرح هذا التغيير فيقول: "ومعنى التغيير أن يكون المقصود يدل عليه لفظ ما، فيستعمل بدل ذلك اللفظ لفظ آخر، ثم يشير إلى أن هذا التغيير يكون على ضربين: أحدهما التشبيه والآخر الاستعارة".

ويقول أيضا: "التغييرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه، وبالجملة بإخراج القول غير مخرج العادة مثل: القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول"، فإخراج القول الشعري إخراجا مغايرا للمألوف يتحقق في مستويات الخطاب المختلفة فهو يتحقق في بنيته الإيقاعية التي تتسم بالانسجام والتوازن، ويتجسد في المستوى التركيبي من خلال التصرف في تراكيب الكلام تقديما وتأخيرا، حذفا وإيجازا، وما إلى ذلك، فضلا عن المستوى الدلالي وما يتعلق به من أمور الصور والمجاز عامة.

الانزياح عند العرب المحدثين: اهتمت الدراسات الأسلوبية الحديثة بظاهرة الانزياح، فمن خلال الانزياح تتشكل جماليات النص الأدبي، وتبرز قدرة المبدع على كسر الرتابة، وخرق المألوف، للوصول إلى جماليات الإبداع الفني.

ومن النقاد المحدثين الذين تناولوا ظاهرة الانزياح بالدراسة والتحليل "عبد السلام المسدي" الذي يعتبر أن الانزياح احتيال على مستويين، احتيال الإنسان على اللغة، واحتيال الإنسان على نفسه، وذلك حين قال: "وما الانزياح عندئذ سوى احتيال الإنسان على اللغة وعلى نفسه لسد قصوره وقصورها معا".

وهذا الاحتيال المشروع، يمكن الشاعر أو المبدع من تجاوز النمطية والقالب اللغوي الجاهز، الذي يجعلانه عاجزا عن الإبداع، واللغة الشعرية ليست عاجزة على الابتكار والإبداع، وإنما هي قادرة على تجاوز قصور اللغة المعيارية، كما يعرفه "أحمد محمد ويس" بأنه: "استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصورا استعمالا يخرج به كما هو معتاد ومألوف بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوة جذب وأسر"،إذ يتضح من هذا التعريف أن الانزياح هو الفيصل بين الكلام العادي والكلام الفني.

ويعرفها "منذر عياشي" فيقول: "أما الانزياح فيظهر إزاء هذا على نوعين : إنه إما خروج على الاستعمال المألوف للغة، وإما خروج على النظام اللغوي نفسه".

الانزياح عند الغربيين: يعرفه "ريفاتير" بقوله: "الانزياح خروج عن النمط التعبيري المتواضع عليه، والانزياح يكون خرقا للقواعد حينا ولجوء ما نذر من الصيغ حينا آخر" ، كما يذهب الناقد الأسلوبي الفرنسي "جان كوهين" إلى كشف ملامح الاختلاف بين الأساليب بدءا بمدى انحراف الكتاب عن النمط المألوف والطقوس المتداولة في الكتابة في سياق نصوصهم الإبداعية، إذ "إن الأسلوب هو كل ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا لمعيار المألوف... إنه انزياح بالنسبة لمعيار أي إنه خطأ ولكنه خطأ مقصود ومحمود تنزع النفس إليه مادام يحمل جمالا فنيا ".

ومن أكثر التعريفات الواردة تعريف "فاليري"، الذي قال: "إن الأسلوب في جوهره انحراف عن قاعدة ما".

تعدد المصطلح: يثير مصطلح الانزياح إشكالية كبرى في الدراسات الأسلوبية الحديثة، كما تستقطب أسلوبية الانزياح كما وافرا من الكتابات الأسلوبية المعاصرة، فهو من المصطلحات الشائعة والمتداولة بين الدراسات النقدية والأسلوبية، فهو أحد المصطلحات غير المستقرة، فقد تعددت تسمياته، القارئ يظن أنه يتعامل في كل مرة مع مصطلح جديد، وقد سبق هذا التعدد في الدراسات القديمة إذ استعمل كما وضحنا سابقا هذا المصطلح قديما بمسميات عدة منها: (العدول، الالتفات، التغيير، الخروج، الانحراف، الانصراف...)، وهذا التعدد أدى بالقارئ الوقوع في شك أنه يتعامل مع مصطلحات متفرقة، إذ أورد "عبد السالم المسدي" في كتابه (الأسلوبية والأسلوب) بعض المصطلحات التي تعود على الانزياح والتي قام بتصنيفها حسب أصولها الغربية:

المصطلح المعرب العربي	أصله الغربي	صاحبه
الانزياح	L´écart	فاليري
التجاوز	L´abus	فاليري
الانحراف	La déviation	سبيتزر
الاختلال	La distorsion	ويلك وراين

الإطاحة	La subversion	باتيار
المخالفة	L´infraction	كيري
الشناعة	Lascandale	بارت
الانتهاك	Le viol	كوهين
حرق السنن	La violation des norms	تودوروف
اللحن	L´incorrection	تودوروف
العصيان	La transgression	أرجوان
التحريف	L´altération	جماعة مو

ومصطلح الانزياح الذي كان للمسدي الفضل الكبير في شيوعه بين الباحثين ونشره، إذ هو ترجمة لكلمة L´écart وهو مصطلح عسير الترجمة لأنه غير مستقر في تصوره، إلا أنه مفهوم ضارب في التاريخ سواء عند العرب أو الغرب كما رأيناه.

في حين يرى بعض الدارسين أن مصطلح "العدول" هو أفضل ترجمة لمفهوم (écart)، لأنه ذلك النوع من الاستعمالات غير العادية وغير المألوفة في ارتباطها بمفهوم العدول عن المستوى المألوف، وهذا ما رجح انتشاره في نقدنا العربي لأنه أقوى المصطلحات القديمة التي تعبر عن الانزياح.

ومما سبق نرى بأنه مهما تنوعت التعريفات والتسميات، إلا أنها تتفق في كون الانزياح ظاهرة أسلوبية مهمة في النقد الحديث، وهي ليست ظاهرة عشوائية، بل مقصودة في الخطاب الأدبي تبتعد به عن النمطية، وتخرجه من المألوف أو الدلالات المعجمية، لتحقيق هدف الإثارة والدهشة والمفاجأة، فالانزياح انحراف الكلام عن نسقه المألوف وحدث لغوي يتبين في تركيب الكلام وصياغته على أنه نظام خارج المألوف خاضع لمبدأ الاختيار، فاختيار الألفاظ وتركيبها في سياق أدبي تجعل للدال عدة دلالات، من هنا يخترق القانون ويصبح للدلالة الأولى إمكانية تعدد المدلولات، فتصبح به اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، وإنما غاية في ذاتها لتحقق الشعرية والجمالية.

مراجع ومصادر المحاضرة:

ـــ مجمع اللغة العربية: معجم الوسيط.

ـــ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة.

ـــ ابن منظور: لسان العرب.

ـــ دوبالة عائشة، برونة محمد: ظاهرة الانزياح في النقد العربي بين التأصيل اللغوي وتعدد المصطلح.

ـــ ابن جني أبو الفتح عثمان: الخصائص.

ـــ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز.

ـــ عبد الواسع أحمد الحميري: شعرية الخطاب.

ــ إبراهيم بن منصور: العدول في البنية التركيبية قراءة في التراث البلاغي.

ــ أحمد محمد ويس: الانزياح في التراث النقدي والبلاغي.

ــ عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب.

ــ أحمد محمد ويس: الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية.

ــ منذر عياشي: الأسلوب وتحليل الخطاب.

ــ جان كوهين: بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري.